عام

التيار القرآني في المغرب:

البدائل والمقاربات

يوسف هريمة

باحث مغربي

قسم الدراسات الدينية

جميع الحقوق محفوظة

مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات و الأبحاث

All rights reserved

Mominoun Without Borders

ملخّص بحث:

يعدّ التيار القرآني في المغرب تياراً جديداً، وإن كان ظهوره في المشرق وخاصّة في مصر سبق بكثير تواجده على الساحة المغربية لاعتبارات مختلفة. فالإصلاح الديني في المغرب كما قلنا سابقاً، لم يكن يوماً فضاءً للنقد والتقويم، بل كان ساحة يتم فيها التضييق والتسييج على كل ما من شأنه أن يكون مدعاة لخلق توترات دينية أو اجتماعية. ظهر هذا التيار وكانت روافده ممتدة إلى المشرق العربي، من خلال الكثير من رواده خاصة أحمد صبحي منصور ومصطفى كمال مهدوي وغيرهم كثير، وربما سبق هؤلاء الكثير ممن حاولوا أن يكتشفوا ويفعِّلوا قواعد نقد المتن، في محاولة لوضع اليد على الاختلالات الكبيرة التي يعرفها علم الحديث، ومهدوا بذلك لمن جاء بعدهم الطريق لظهور هذا التيار الإصلاحي الذي امتدت آثاره على الساحة المغربية ولو في شكل محاولات فردية، لم ترتق بعد لتشكل تياراً قائماً يمكن أن يصل إلى حدود الحركة الإصلاحية.

يعدّ التيّار القرآني في المغرب تيّاراً جديداً، وإن كان ظهوره في المشرق وخاصّة في مصر سبق بكثير وجوده على الساحة المغربية لاعتبارات مختلفة. فالإصلاح الديني في المغرب كما قلنا سابقاً، لم يكن يوماً فضاءً للنقد والتقويم، بل كان ساحة يتمّ فيها التضييق والتسييج على كلّ ما من شأنه أن يكون مدعاةً لخلق توترات دينية أو اجتماعية. ظهر هذا التيار وكانت روافده ممتدة إلى المشرق العربي، من خلال الكثير من روّاده خاصة أحمد صبحي منصور ومصطفى كمال مهدوي وغيرهما كثير، وربّما سبق هؤلاء الكثير ممّن حاولوا أن يكتشفوا ويفعّلوا قواعد نقد المتن، في محاولة لوضع اليد على الاختلالات الكبيرة التي يعرفها علم الحديث، ومهدوا بذلك لمن جاء بعدهم الطريق لظهور هذا التيار الإصلاحي الذي امتدت آثاره على الساحة المغربية، ولو في شكل محاولات فردية، لم ترتق بعد لتشكل تياراً قائماً يمكن أن يصل إلى حدود الحركة الإصلاحية.

ظلّ هذا التيار الذي مثّل امتداداً طبيعياً لما يصطلح عليه **بـ"القرآنيين"** في شكل محاولات فرديّة يمثلها الأستاذ بوهندي، ولم يستطع يوماً أن يمثل تياراً أو حركة، بالرغم من النتائج التي حققها على المستوى الفكري في فترة من الفترات. فلا ينكر أحد مدى الارتجاجات التي أحدثتها محاولات الأستاذ بوهندي في ترسيخ فكرة الثقافة في مقابل القرآن، أو فكرة المطلق مقابل النسبي البشري[1]، وهي أفكار عملت على وضع علم الرواية على محك النقد، بتفعيل قواعد نقد المتن وأهمها عرض الرواية على القرآن الكريم. وإلى هذه الحدود قد كانت هذه المحاولات ذات أهمية قصوى في تحريك بيئة ظلّت منغلقة على باقي التيارات الإصلاحية، ولم يكن الحقل الديني المغربي الرسمي يسمح بمرور كلّ الأفكار التي من شأنها المسّ ممّا تعدّه السياسات الرسمية ثوابت، بالرغم من أنّ الفكر الديني هو نتاج لتفاعل بشري مع الظاهرة الدينية ولو اكتسب طابع المقدس.

فما هي البدائل التي يطرحها هذا التيار، وإن كان لم يصل بعد إلى حدوده؟ وما هي أهمّ نقاط الضعف التي يمكن أن تعتريه كما اعترت فكرة المؤسّسين الأوائل؟. هذا ما سنحاول إلقاء الضوء على بعض جوانبه.

[1]- انظر كتابي: **أكثر أبو هريرة، نحن والقرآن**... للدكتور مصطفى بوهندي.

1– القرآن الكريم وتعدد المدارس:

تعدّدت مدارس القرآن بتعدّد التوجّهات الفكرية، والمنطلقات العقدية والثقافية لكلّ والجٍ لهذا الباب بحثاً وتنقيباً، كما اختلفت باختلاف التصورات حول مختلف جوانب الحياة ومسبقات كلّ باحث أو خلفياته الجغرافية والتاريخية. هذا التعدد في المقاربات القرآنية كان ولا زال أحد أهم روافد الثراء الأصولي في العلوم الإسلامية بكلّ ما تحمله هذه العلوم من قيم إيجابية أو سلبية، وأحد أكبر مظاهر الاختلاف السلبي حين يتحول القرآن أو المصدر الرئيس لرسالة السماء إلى منبع لكل قيم الصراع والنمطية والقمع الفكري، بمقاربات تختلف في الشكل وتتفق في المضمون على إنتاج كائن إنساني إقصائي لكل المحاولات التقريبية المتجاوزة لحدود الفكر، والنابعة من الإنسان والمنتهية إليه.

لقد اتخذت المقاربات القرآنية قديما وحديثا أشكالاً متعددة في قمع الكائن الإنساني عبر مستويات عديدة، كان أهمّها حصر مجال فكره في ما تداولته ثقافة روائية شفهية اعتمدت في أصولها على الانتماء السياسي في الكثير من الأحيان، ومن جهة أخرى قمع كل المحاولات التي تقفز على تأطير الإنسان خارج النسق الروائي تارة بالتنفير وخلق صراع وهمي بين ما أسموه جدلية العقل والنقل، وتارة أخرى قمعه من خلال التصفية الجسدية والنفسية التي كان التاريخ شاهداً على كثير من مشاهدها وفصولها، دون مراعاة لحس إنساني ينبعث من قيم الدين كرسالة تتجاوز الإكراه والتأطير القسري.

ظلّت هذه المقاربة تنخر الجسم وتعمّق الهوّة بين النظرية والتطبيق إلى حدود بعيدة، لم يستطع العقل المتديّن في الكثير من الأحيان أن يخرج من نسقها المحكم في قبضته القسرية وليس في قوّته الاقتراحية، إلى أن ظهرت اتجاهات أخرى تحاول حسب تصورها للفهم القرآني أن تؤطر العقل المتدين وفقاً لجدلية قرآنية متجاوزة لحدود الرواية في تصورها، عبر عملية نقدية تستهدف عرض هذه الروايات الثقافية على مضامين القرآن وموازينه ليحدث التعارض، ومن ثمة الانتصار لمنطق القرآن في شموليته ووحدته. وقد نجحت هذه المقاربة إلى حد كبير في توسيع الهوة بين ما هو نظري وتطبيقي في علم الحديث، وأخفقت حين لم تجب عن الكثير من القضايا المرتبطة بمجموعة من الأمور التفصيلية الخاصة بالنسك والروايات التاريخية المؤسسة لتدوين القرآن ورواياته.

كلّ هذا التعالي عن الواقع في فكر من أطلقوا على أنفسهم القرآنيين يجد مبرراً له في فكرهم وثقافتهم بالتأطير اللغوي البعيد عن إفرازات الواقع ومنتجاته، ويفتح باب النقاش وباب السؤال على مصراعيه: متى نخلّص القرآن من أدلجاتنا؟؟؟ بمعنى آخر أن تكون قناعاتنا السياسية والفكرية بعيدة عن التوظيف وكسب الشرعية من المقدس لتمرير أفكارها ومشاريعها سواء اتفقنا معها أو اختلفنا، فالتاريخ اليهودي شاهد على عمق

الجريمة حينما صار الكتاب المقدس يشرعن للإجرام وإبادة الشعوب واغتصاب الأرض تحت مسمى الإرادة الإلهية والمباركة المرتبطة بالعنصر الشعبوي الإصطفائي. هذا ما سنحاول إلقاء الضوء على بعض جوانبه من خلال هذا الموضوع، ومن ثمة فتح النقاش حول سؤال التوظيف وإشكالية المقاربة القرآنية الجديدة وخطورة أبعادها لو جاوزت السقف البشري في القصور والضعف.

2– القرآنيون ودوافع الظهور:

إنّ العلاقة مع السُنّة النبوية لم تكن وليدة العصر الحالي، بل تمتدّ إلى بدايات تشكل هذه الحركة الثقافية، وقد أخذت القضية مسارات كبيرة وعديدة كان أخطرها أن اعتبرت هذه الأخيرة قاضية على القرآن وحاكمة لمضامينه، حيث يتعذّر على الداخل إلى دراسة النصّ القرآني الدخول إليه إلا عبر بوابتها الكبيرة، من خلال مرويّات أخذت أشكالاً متعدّدة تبعاً للتخصصات المذهبية والفكرية لكل اتجاه. وخطورة مثل هذه المقاربة الدينية للنصّ الديني تتجلّى في كونها مقاربة احتكارية لا تخضع لضوابط علمية، بقدر ما تخضع لمنطق الشرعية المكتسبة أساساً من المؤسسة السياسية المتجلية في التواطؤ المكشوف بين ما هو ديني وسياسي. والثقافة الروائية التي أنتجتها هذه العلوم هي أحد أهم الأدلة على صدق أو بطلان ما سنقوله، فالإنسانية رشدت واكتمل بلوغ عقلها، ولن تحتاج مجدَّداً إلى منْ سيملأ عقلها بثقافة الرواية بكل تجلياتها، لأن ظروف العصر قد تغيّرت، والمناخ الذي احتضن هذه العلوم قد أصبح آيلاً للسقوط، إن لم نقل قد سقط بالفعل نتيجة الهوة الحضارية التي أسقطت فيها هذه العلوم ركب الإنسان في شموليته وحضارته. والخطير في علم السنة أو علم الحديث أنه لم يُؤسس يوماً على بناء قرآني، وإن كان النص القرآني حاضراً في تأصيلات المؤسّسين لأغراض معينة، تكشف عنها المدارسة النقدية للكثير من الروايات، هذا القول يوحي حقيقةً بأزمة الفكر الديني والعلوم الدينية، فما من علم أسَّسَه القدماء تحت وقع ظروفهم وسقفهم المعرفي، إلاّ زعموا أنّ القرآن أحد الأصول المركزية في هذا البناء. وبالتعمق في مثل هذا الادعاء نجد القرآن قد وُظِّف توظيفاً خطيراً لخدمة كلّ المشاريع التي كانت تهدف بالأساس إلى إثبات شرعيتها، عبر المرور من هذا الطريق الذي يمكنه أن يضمن لها البقاء والشرعية المزعومة، هذه القواعد التي أصّل لها هذا العلم؛ كانت بمثابة بوابة كبيرة للاستبداد السياسي والديني، وفتحت الآفاق على الكثير من المفاهيم غير الإنسانية، لتجد لها موطئاً في الثقافة الإسلامية عبر بوابة الرواية الحديثية.

3– القرآنيون ردة فعل طبيعية:

كان ولا زال التيّار الروائي محتكراً للمشهد الديني مما وَلَّدَ ردود فعل أخرى، واتجاهات مضادّة لعلّ أبرزها الاتجاه الذي أصبح معروفاً بالقرآنيين، وأخذ هذا الاتجاه في ترسيخ مبادئه وأفكاره، وعادت له هيئات فكرية تنطق باسمه، وإن كان يعرف في الكثير من الأحيان اضطهادات في العديد من الأقطار العربية، بسبب الثقل الثقافي الروائي واستحكام الآلة الكهنوتية في زمام الكثير من السياسات. آمن هذا الاتجاه الفكري بأن القرآن هو الكفيل بالخروج من مستنقع هذه الثقافة المسيطرة، والمحتكرة للحق في الاختلاف منذ زمن تأسيسها، ولم يعترف بالرواية وصار ناقداً لبنيتها عن طريق عرضها على مضامين هذا الكتاب. وعلى أي حال قد كان هذا التيار ردة فعل طبيعية على مخالفات كبيرة في بنية الرواية عموماً، إلا أنه هو الآخر سقط فيما سقط فيه التيار الآخر، حين تسلط باسم القرآن عوض الرواية الثقافية، وجعل من العملية كلها مختزلة في نصوص اللغة، وغاب عنه بأن كل العمليات التفسيرية، سواء ارتبطت بما سمي بالتفسير بالمأثور، أو ارتبطت بالقرآن هي عمليات اجتهادية يعمل فيها الإنسان فكره وتكون معرضة بشكل طبيعي للقصور وعدم الإحاطة.

إنّ الاتجاه القرآني مهما حاول أن ينتسب إلى القرآن، سيجد نفسه أمام اجتهادات فردية أو جماعية لن تتحول إلى قرآن، ولو كانت تجعل منه منطلقها الوحيد؛ فالعلاقة مع القرآن حسب تصوري لها لن تتأسس من خلال تيار أو من خلال منهج بذاته مع ضرورة ذلك، وإنما العلاقة مع القرآن هي علاقة كل فرد منا في جدليته مع هذا الكتاب، أخذاً وعطاءً وإيماناً. ومن جهة أخرى، فإن هذا التيار الفكري المنتسب للقرآن يجد نفسه أيضاً أمام إشكالية بحتة حين لا يستطيع الإجابة عن مفاهيم، مثل الصلاة والصوم والحج التي تغيب بشكل كلي أو جزئي على النص القرآني، وبالتالي يتم اللجوء إلى المفاهيم الثقافية والروايات المؤسسة لمثل هذه المناسك، وإن تنكروا لذلك بدعوى التواتر العملي؛ فالتناقض والتباين في هذه المدرسة هو تباين جوهري، إذ الكل يعتمد في تعاطيه مع الدين مقاربات ثقافية كانت الرواية الإسلامية أحد روافدها الأساسية.

ليس هناك إمكانيّة محدّدة، يمكنها أن تؤطرنا في تعاملنا مع الظاهرة الدينية بشكل عام، إذ الدين هو وجهة لكل إنسان يأتيه وفق سقفه المعرفي ونسبيته الإنسانية. ولا بد لنا أيضا أن نقول في هذا المقام بأن اعتماد القرآن كمرجع بعيد عن الثقافة والتاريخية، سيؤسس لفضاء أكثر رحابة ونقاوة من الفضاء التعتيمي الذي خلقته الرواية في تعاطيها مع هذا الكتاب، ولكن لبلوغ هذا الأمل كان لزاماً أن تكون مقاربتنا مقاربة شمولية في نقدها، فليس هناك أية علاقة توليدية بين نص يطرح نفسه للإنسان بشكل عام دون تمييز، ودون أي خوف من كشف ما يمكن أن يكون زيفاً أو ستاراً يستتر خلفه، وبين ثقافة أسست نفسها على الحق الإنساني في التفكير، وجعلت من الإنسان مستهلكاً لا مبدعاً لحضارة منشودة. لذا، ينبغي ألاّ نخجل من القيام بمحاولات النقد الكثيرة على علاتها

لنكشف سوءاتنا وعيوبنا، بالاستفادة من الآخر بكل تجلياته، ولن يكون التسلّط باسم القرآن تارة أو باسم الرواية تارة أخرى مانعاً من القيام بعملية تفكيكية لمجموعة من المسلمات التي ألبست ثوب الدين، وذلك من خلال القيام بعملية نقدية موضوعية هدفها تشكيل نزعة إنسانية كونية ينعم فيها الإنسان بالحرية والكرامة والسلام على قدم المساواة، دون التوظيف والأدلجة الفكرية المنبعثة من القناعات السياسية أو الدينية، ويكون الواقع الموضوعي هو الحكم أولاً وأخيراً، بدل التوسّل باللغة من أجل إحكام القبضة وكسب الشرعية.

4– التيار القرآني: المآخذ والعقبات

ويمكن اختزال أهمّ المآخذ والعقبات في ما يلي:

- الإنسان والقرآن:

يمكن أن يحسبها البعض ضرباً من التنظير الفلسفي، أو تحصيل حاصل، أو العبث الذي لا طائل منه. ولكن بالتعمق فيه نجده إحدى الإشكاليات الفكرية الدينية. ألا وهي إشكالية النسبية البشرية في التعامل مع القرآن، أو مع أي شيء مقدس كتباً كانت أو غير ذلك. إنّ غياب حقيقة عدم استيعابنا المطلق للحقائق، وإدراكنا لحقيقة أننا حلقة ضمن تاريخ طويل كان وسيستمر في سيره إلى ما شاء الله، هو أحد أكبر الأزمات الفكرية التي مر منها الفكر الديني عموما، حين جعل من محاولاته ومقارباته أموراً قد جاوزت القنطرة، وحقائق لا غنى للقارئ أو المريد بالتعبير الفقهي الصوفي على تقبلها والانصياع لها طوعاً وكرهاً. والتاريخ مليء بالأحداث والأمور التي تنحو هذا المنحى في المقاربات الدينية.

والخطير في ذهنية تؤمن بهذا المنطق، أنها لا تستطيع أن تنفتح على الآخر، إلا في حدود تقبله لفكرها أو مجاراته لطبيعتها. فالاختلاف عندها شعار تستعمله كطعم تتصيد به ضحايا التسلط البشري على مر العصور والحقب. وقد ظنت هذه العقلية التراثية أنها بإزاحتها لتراث روائي في قراءة القرآن، تستطيع أن تتسلط على الناس باسم القرآن، ناسية أو متناسية بأن كل عملية وكل تفاعل مع نص أو آية أو مقطع، هو تفاعل جهد إنساني مرتبط بسقف معين وبدرجة معرفية محدودة زماناً ومكاناً. ولن يستطيع أيا من هذه التوجهات أن تجعل من قراءاتها نصوصاً مقدسة لا يجوز تجاوزها، إلى أبعاد أخرى بفعل التغير الزماني. وهكذا، فالقرآن كما أفهمه هو حق لكل إنسان منا يفهمه وفقا لسقفه المعرفي، ووفقا لدرجاته الاستيعابية عبر جدلية تفاعلية معه وإيمانا وأخذا وعطاء. ولن تتحول كل هذه المجهودات التراكمية في العمل الفكري إلى أصول وثوابت لا نستطيع بحال تجاوزها إلى غيرها.

ومن هنا أحبّ أن أؤكّد على أنّ علاقتنا بالقرآن أو أي كتاب مقدّس، هي علاقة بشرية تحكمها جدلية أخذ وعطاء لا ينبغي أن نقفز عليها، لنجعل من فكرنا أو ما تصنعه عقولنا في فترة من الفترات، مدعاة لانقلاب على لعبة الرواية إلى غيرها تحت مسمى آخر. وعلى أي كان هذا التيار ردة فعل طبيعية، على مخالفات كبيرة في بنية الرواية عموماً، إلا أنه هو الآخر سقط فيما سقط فيه التيار الآخر، حين تسلط باسم القرآن عوض السنة، وجعل من العملية كلها مختزلة في نصوص اللغة. وغاب عنه بأن كل العمليات التفسيرية، سواء ارتبطت بما سمي بالتفسير بالمأثور، أو ارتبطت بالقرآن هي عمليات اجتهادية يعمل فيها الإنسان فكره وتكون معرضة بشكل طبيعي للقصور وعدم الإحاطة. وعليه، فإن الاتجاه القرآني مهما حاول أن ينتسب إلى القرآن سيجد نفسه أمام اجتهادات فردية أو جماعية، لن تتحول إلى قرآن، ولو كانت تجعل منه منطلقها الوحيد.

ـ اللغة تعبير عن واقع:

لن أخوض في متاهات اللغة أو إشكالاتها العديدة والمتفرعة، لأنّها ما زالت تلقي بظلالها على الكثير من الأسئلة المرتبطة بالنص الديني عموماً، والإسلامي منه على وجه الخصوص. وبمنطق بسيط، فاللغة مهما كان الجدال الذي طرحته قديما وحديثاً، فهي مجرد وسيلة للتعبير عن الواقع بمختلف تجلياته. أمّا صدق ما تحمله هذه اللغة أو بطلانه، فهو مرتبط بالواقع الإنساني بمستوياته المختلفة. والتيار القرآني أحد أبرز المهتمين بهذا الشق اللغوي على أهميته حين تصبح اللغة هي المبتدأ والمنتهى، بدل أن يكون الواقع الموضوعي أو البرهان بالتعبير القرآني هو الأصل في التصديق والختم، ومن هنا كانت البداية والنهاية لهذا التيار المستجلب لمجموعة من الإشكالات المعرفية في أصوله وقواعده، حينما أصبحت القناعات السياسية في الكثير من الأحيان تجد مسوّغاً لها عبر لعبة اللغة، وارتفع المجرم وانحدر الضعيف والضحيّة بمنطق قرآني يتعالى على المعطيات الواقعية والإنسانية المؤسسة للحق، وارتفعت اللغة وتأويلاتها لتنتصر لهذا وتهاجم ذاك تحت مسوغات غير منطقية تخرج عن سياقها النسبي في الكثير من الأحيان.

ينسى الإنسان تحت تأثير كلمة فكر أو ثقافة منشأه وارتباطه النسبيّ بما يحيط به، متجاوزاً كلّ الأرقام والمؤشّرات التي يبني عليها الإنسان فهمه للمعطيات، ويتمسّك بخيوط اللغة تحت مسميات المقدس لتمرير أفكار أو مشاريع يكون لها الأثر الكبير عن المصداقية الفكرية من أساسها، بغض النظر على التوجّه الفكري أو السياسي لهذا التيار أو ذاك؛ فالذي يريد أن يهدم عقلية لغوية فقهية روائيّة لا يمكن أن يؤسس عليها نفسها مع قليل من التحوير، ويؤسّس أحكاما لها تبعاتها وخطورتها بناء على نموذج فقهي لغوي تحت غطاء جديد، بل يجب أن يأتي بمقاربة أخرى مؤسسة على قواعد وأصول مخالفة للمنطق الفقهي اللغوي الذي أنتج التخلّف والانحطاط الفكري الحاصل في البنية الفكرية الإسلامية، وإلا فالأمر سيان بين المقاربات الفقهية القديمة

والمقاربة الاجتهادية التي تتخذ شعار القرآن مشروعا لها، وعليه فالعقل الفقهي اللغوي بشكله التقليدي أو المستحدث هو تكريس للأزمة الفكرية الدينية، وأي إصلاح يستبقي هذه المقاربة الاحتكارية للعلوم والاختصاصات الأخرى هو مجرد الجري وراء سراب الإصلاح، والنظر إلى ظواهر المجتمع نظرة تبسيطية هدفها إصدار الأحكام الجاهزة المنطلقة من اللغة أساساً، لن يعدو أن يكون صَبًّا للزيت على النار ولعبا بالألفاظ، أو بتعبير آخر: إنّه العقل الفقهي اللغوي بلبوس جديد.

- أزمة السنة العملية:

يأخذ المنهج القرآنيّ على عاتقه مسؤوليّة كبيرة، في حجم ما يقفز به على الكثير من المعطيات التاريخية والفكرية، حين يجعل القرآن السبيل الوحيد للمعرفة الإنسانية. إذ فيه كل شيء بما في ذلك ما يتحرج منه كل القرآنيين، ويتخبّطون في إجاباتهم عنه. والمشكلة في هذا التيار أنّه مجرّد ردّة فعل طبيعية، على ما خلفته الرواية من أثر كبير على التاريخ العربي الإسلامي عموما. فقد استحوذت على الجانب الفكري لدهور طويلة، ظلّ فيها النصّ القرآني حبيس هذه الرؤية الثقافية. فكانت بذلك هذه الردّة الفعلية الكبيرة لهذا التيار، نابعة من عمق انفعالي لا علمي في الكثير من الأحيان، خاصة في تعاملها الانتقائي مع الرواية. فهي من جهة تنكر الرواية وعلم الحديث، ومن جهة أخرى تتبناه حين يعجزها الأمر عن الإجابة على إشكالات حقيقية في بنية الفكر الديني عموما، سواء انتسب إلى الرواية الأثرية أو إلى القرآن.

إنّ الاعتراف بخطورة قواعد علم الحديث، في تأطير الفكر الديني والمساهمة في التخلف الفكري، يجعل من أية مقاربة تتلمس هذا المعطى، ينسحب عليها كلّ مقوّمات التخلف والسلبية. ولكن يتناسى أصحاب هذا الاعتراف في الوقت نفسه، حين يتعاملون بانتقائية معهودة مع هذه القواعد التي ينتقدونها، وذلك عندما يعجزون عن الإجابة عن معضلات، لا زالت مناقشتها حتى الآن لم تسفر على شيء مطمئنّ. ويكفي أن ننظر إلى مفهوم الصلاة، لنرى عمق هذا التناقض الحاصل بين النظرية والتطبيق في المقاربات الدينية عموما. فمنهم من يؤكد من جهة الاكتفاء بالقرآن وفق منهجيتهم الخاصة، وفي الوقت نفسه يلجؤون إلى قواعد علم الحديث ليحتموا بها، حين يروا بأن الصلاة في شكلها الحالي كما هو متعارف عليه، لا توجد بكل تفاصيلها في القرآن لاجئين إلى قاعدة التواتر العملي، فيشرحون هذه القاعدة بقولهم: **"فالتواتر لا يحتاج إلى سند، لأنه رواية مجتمع شاهد إلى آخر سامع مع توسع دائرة التواتر مع الزمن، لذلك يفيد الخبر المتواتر الحصول القطعي ضرورة، ويحيل العقل كذب الخبر المتواتر..."**.[2] فأين تندرج قاعدة المتواتر؟ أليست ضرباً من أضرب الحديث؟ أليس المنقول في النص تعريفاً للمحدثين؟ ولماذا يحتجون بالقاعدة التي يعتبرونها في مكان آخر خدعة وكذبة؟ هل انتفت عنها

[2]- سامر إسلامبولي، التواتر أداة معرفية لا علمية، عن موقع أهل القرآن.

هذه الصفة أم الغاية تبرر الوسيلة؟ وهل هناك حدود فاصلة بين المتواتر وبين غيره؟ ومتى كانت الكثرة دليلاً موضوعياً على حقيقة أو بطلان شيء؟...

وبناء على ذلك، نقول إن العمق الفكري لهذه المدرسة هو عمق متناقض، لا يستطيع البتّة أن يجد لنفسه موطئاً قاراً، خاصة في المواضيع التي يعجزون عن الإجابة عنها ملتفين حول أنفسهم، ليجدوها داخل نطاق الرواية وعلم الحديث شاؤوا أم أبوا.

ـ لعبة السنة والحديث:

هذه مفارقة عجيبة في المنهج المبشّر به، وتلعب على وتر قرآني حساس. وتهدف أيضا إلى أنّ التمييز بين السنة والحديث، سيخفف من عمق الأزمة الفكرية التي يبشر بها هذا التيار. وكسابقتها من الأمور، تأتي هذه النقطة لتجعل التناقض الحاصل في بنية هذا الفكر تناقضا ظاهرا للعيان، ويهدم من الأساس كل تصوراته المنبنية أصلاً على تنظير فكري، بعيد عن الواقع في الكثير من الأحيان. ولننظر إلى قول أحد المنظّرين للفكر القرآني "سامر إسلامبولي"، وهو يكشف لنا عن أزمة الحديث فيقول عنه في حوار له مع مجلة الوقت: **"مادة الحديث النبوي مادة تاريخية لا قداسة لها أبداً، ومنتفٍ عنها صفة الوحي الإلهي التشريعي، وذلك لأنها نتيجة تفاعل النبي العظيم مع النصّ القرآني حسب معطيات واقعه، وحسب الأدوات المعرفية الزمكانية المتوافرة حينئذ، وهي لذلك غير ملزمة للمجتمعات اللاحقة أبداً، ومنْ يقول بغير ذلك يكون إنساناً يُغمض عيناه عن الحقيقة! فالحديث النبوي المنسوب قد أصابه التحريف زيادة ونقصاناً، فمنْ يقول بأنه وحي فهو يعتقد أن مادة الوحي قابلة للتحريف..."**[3]. فالحديث بالنسبة له لا قدسية له، لأنه نتيجة تفاعل الرسول مع القرآن بآلياته الزمكانية. ويتناقض مع نفسه حين يجعل السنة مباينة له حسب فهمه لها بقوله: **"نجد سنة النبي موجودة في فحوى النصّ القرآني، فقد أخذ النبي سنته من خلال تفاعله مع القرآن ذاته وإسقاطه على الواقع، فسنة النبي انبثقت من القرآن لتعود إليه دراسةً وفقهاً وتطبيقاً..."**[4]. فالسُنّة أيضا حسب هذا النصّ هي نتيجة تفاعل مع النص القرآني حسب هذا القول. فما هو يا ترى الفرق بينها وبين الحديث؟

[3]- سامر إسلامبولي، الحديث النبوي مادة تاريخية لا قداسة له، صحيفة الوقت البحرينية، العدد 361 - الجمعة 28 محرم 1428 هـ - 16 فبراير 2007

[4]- المرجع السابق.

عود على بدء:

إنّ عملية الإصلاح الديني في المغرب، لا يمكن أن تؤتي أكلها إذا استمر الإصلاح بعنوان سياسي، إذ الإصلاح هو البحث عن ما فسد من بنيات الفكر. وهذا لا يمكنه أن يتأتى إلا في ضوء قراءات نقدية جادة، وفسح المجال للبحث النقدي، وليس البحث الذي يكرس الواقع الفكري لما يسميه البعض بالخصوصية المغربية، فالنقد لا يخالف الخصوصيّة، بل يزكّيها ويطوّرها لتصير خصوصيّة معرفية وعلمية، وليست بقايا من ماضٍ يمكن أن تنعكس على نموّ المجتمع الفكري والثقافي.

MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm
Mominoun

الرباط – المملكة المغربية
ص.ب : 10569
هـاتـف: 00212537779954
فاكس: 00212537778827
info@mominoun.com
www.mominoun.com